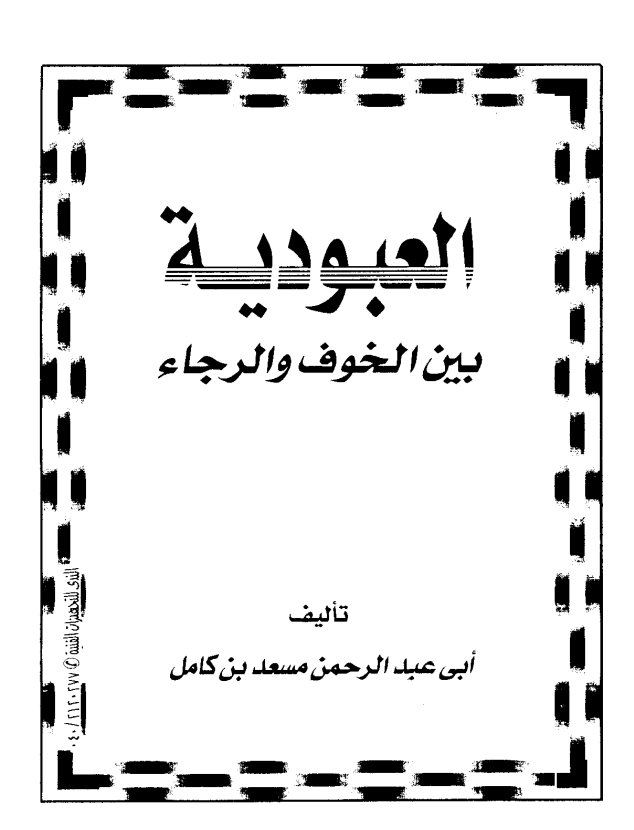

العبودية
بين الخوف والرجاء
تأليف
أبى عبد الرحمن مسعد بن كامل

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠١ م

الناشر

دار ابن رجب

الفرع الرئيسى فارسكور: ٠٥٠٤٤١٥٥٠ / ٠١٢٢٣٨٣٠٥٦ ـ ٠٥٧

فرع المنصورة: محطة الأتوبيس الدولية ٣١٢٠٦٨ / ٠٥٠

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله .

وبعد . .

فعلى المؤمن أن لا ييأس من روح الله فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ، ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون وعليه كذلك أن لا يأمن مكرَ الله فلا يأمنُ مكر الله إلا القوم الخاسرون ، وكما قال النبى - صلى الله عليه وسلم - « لَوْ يَعْلَمُ المؤمنُ مَا أعَدَّ اللَّهُ منَ العُقوبَة مَا طَمعَ بجَنّته أحَدٌ ، ولَو يَعْلَمُ الكَافرُ مَا عنْدَ اللَّه منَ الرَّحْمَة مَا قَنَطَ منَ رَحْمَته أحَدٌ » . فحال المؤمن ينبغى أن تكون دوماً بين الخوف والرجاء ودعاؤه ينبغى أن يكون رغباً ورهباً وبين يدىَّ رسالةٌ أوضحت هذا المفهوم بجملة من الأدلة

من كتاب الله وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وقد قمت بالنظر فى أحاديثها فإذا الغالب عليها الصحة والسداد ، ولله الحمدُ ، فأسأل الله أن يجازى كاتبها أخى مسعد بن كامل ـ حفظه الله ـ خير الجزاء على ما قام به وأن ينفع به الإسلام والمسلمين .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

كتبه

أبو عبد الله / مصطفى بن العدوى

مُقدِّمَةٌ

الحـمـد لله المرجـو لُطفُـهُ وثَوابُهُ ، المخـوَّف مَكرُه وعقابُه ، الذى عمّر قلوب أوليائه بروح رجائه حتى ساقهم بلطائف آلائه إلى النزول بفنائه والعدول عن دار بلائه التى هى مستقر أعدائه ، وضرب بسياط التخويف وزجره العنيف وجوه المعرضين عن حضرته إلى دار ثوابه وكرامته وصدهم عن التعرض لأئمته والتهدف لسخطه ونعمته ، قوداً لأصناف الخلق بسلاسل القهر والعنف وأزمَّة الرفق واللطف إلى جنته . ـ والصلاة والسلام على محمد سيد أنبيائه وخير خليقته وعلى آله وأصحابه وعترته .

أما بعد :

فإن الخوف والرجاء جناحان بهما يطير المقرّبون إلى كل مقامٍ محمودٍ ، ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة

كل عقبة كؤود ، فلا يقود إلى قرب الرحمن وروح الجنان مع كونه بعيد الأرجاء ثقيل الأعباء محفوف بمكاره القلوب ومشاق الجوارح والأعضاء إلا أزمَّة الرجاء ، ولا يَصُدُّ عن نار الجحيم والعذاب الأليم مع كونه محفوظاً بلطائف الشهوات وعجائب اللذات إلا سياط التخويف وسطوات التعنيف فلابد إذاً من بيان حقيقتهما وفضيلتهما وسبل التوصل إلى الجمع بينهما والله الموفق للخيرات والهادى لأعلى الدرجات (١) والخوف والرجاء له أصوله فى كتاب الله ـ عز وجل ـ.

قال الله تعالى : ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ (الزمر : ٩)

وقال تعالى : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ (السجدة : ١٦)

(١) من البحر الرائق لفضيلة الشيخ الحبيب أحمد فريد حفظه الله .

وقال الله عز وجل : ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً (٥٦) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ (الإسراء : ٥٦ ـ ٥٧)

وقال الله تعالى : ﴿ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ (الأعراف : ٥٦) أى خوفاً من عقابه وسطوته وعذابه وطمعاً فى رحمته وجنته ونعيمه .

وقال الله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ (الرعد : ١٢)

وقال الله تعالى فى شأن أنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ (الأنبياء : ٩٠) فيجمع العبد بين الخوف والرجاء ، قال العلماء : ويستحب

للواعظ أن يجمع فى موعظته بين الخوف والرجاء لئلا يقنط أحد ولا يتكل ، وقالوا : وليكن جانب التخويف أكثر لأن النفوس إليه أحوج لميلها إلى الرجاء والراحة والاتكال وإهمال بعض الأعمال . هذا بالنسبة إلى مسائل الوعظ . أما حال العبد مع ربه فاعلم أن المختار للعبد فى حال صحته أن يكون خائفاً راجياً وأن يكون خوفُه ورجاؤه سواء ، وفى حال المرض يتمحض الرجاء، وقواعد الشرع من نصوص الكتاب والسنة متضافرة على ذلك . قال الله تعالى : ﴿ **حمٓ (١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢) غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ** ﴾ (غافر : ١، ٢، ٣) .

وقال الله تعالى : ﴿**إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ (الأعراف : ١٦٧) .

وقال تعالى : ﴿**نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩)**

وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ ﴾ (الحجر : ٤٩ : ٥٠)

وقال تعالى : ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (الأعراف : ١٥٦) والآيات فى هذا المعنى كثيرة جداً فيجتمع الخوف والرجاء فى آية أو آيتين متتاليتين أو آيات متتالية .

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « لَوْ يَعْلَمُ المؤمنُ مَا عِنْدَ اللَّه منَ العُقُوبة مَا طَمعَ بجَنَّته أحَدٌ ولَوْ يَعْلَمُ الكَافرُ مَا عَنْدَ اللَّه مَنَ الرَّحْمَة مَا قَنَط منْ رَحمَته أحَدٌ » (١) .

قال صاحب المدارج : القلب فى سَيْره إلى الله عز وجل بمنزلة الطائر فالمحبة رأسه والخوف والرَّجاء جناحاه فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران ، ومتى قطع الرأس مات الطائر ، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة

(١) مسلم (حديث ٢٧٥٥)

لكل صائد وكاسر ، لكنَّ السلفَ استحبوا أن يقوى في الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا يقوى جناح الرجاء على جناح الخوف . أ هـ انظر مدارج السالكين (١) ٥٥٤) .

وقد قدمت المبحث الدال على سعة رحمة الله تبارك وتعالى وهو مبحث الرجاء تيمناً لأن من مقاصد الشريعة التبشيرَ والتوسعةَ والتيسيرَ ، قال الله تعالى : ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ (النساء : ٢٧)

وقال تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة : ١٨٥)

وقولُ النبيِّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « بَشِّرُوا وَلاَ تُنَفِرُوا ، وَيَسِرُوا وَلاَ تُنَفِرُوا »[١] .

وفي مبحث الرجاء ذكرت نماذج تدل على سعة رحمة

---

(١) مسلم (حديث ١٧٣٢) .

الله تعالى ، وأنه يغفر الذنوب جميعاً فإنه سبحانه لا راد لقضائه ، ولا معقّب لحكمه ، حتى يعلم ذلك كل من أسرف على نفسه فيسارع ويبادر إلى التوبة والإنابة والرجوع إلى الله والاستقامة على شرع الله سبحانه وتعالى . وثَنَّيْتُ بمبحث الخوف وذكرت فيه نماذج تدل على أن الله يأخذ بالذنب الواحد ويعاقب به مهما بلغت درجة صلاح العبد فإذا علم العبد ذلك انكفّ وانزجر عن المعصية واستقام أمره أسأل اللهَ - تبارك وتعالى - أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفع به إخوانى المسلمين وأخواتى المسلمات وأن يُثقِّل به الموازين يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى اللهَ بقلب سليم ولا يفوتنى أن أشكر لشيخنا أبى عبد الله مصطفى بن العدوى - حفظه الله - فقد انتفعت بعلمه كثيراً وبمصنفاته التى صنفها فى بحثى هذا وفى غيره ، أسأل الله أن يجعل ذلك فى ميزان حسناته ، وأن يجزيه عنا خير الجزاء ، ويجزل له المثوبة

والعطاء . وإلى موضوع الرساله والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً .

كتبه

أبو عبد الرحمن مسعد بن كامل بن مصطفى
كفر الشيخ - الحامول - تفتيش أبى سكين - قرية السادات
« ٤١ الشراقوه سابقاً »

المبحث الأول

الرجـــاء

الرجـــاء

الرجاء : هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده ، وإذا كانت الأسباب غير موجودة فاسم الغرور والحمق عليه أصدق ، وإذا كان الأمر مقطوعاً به فلا يسمى رجاءً ، إذ لا يقال أرجو طلوع الشمس ، ولكن يمكن أن يقال أرجو نزول المطر .

وقد علم علماء القلوب أن الدنيا مزرعة الآخرة ، والقلب كالأرض والإيمان كالبذرة فيها والطاعات جارية مجرى تقليب الأرض وتطهيرها ومجرى حفر الأنهار وسياقة الماء إليها ، والقلب المستهتر بالدنيا المستغرق بها كالأرض السبخة التى لا ينمو فيها البذر ، ويوم القيامة يوم الحصاد ، ولا يحصد أحد إلا ما زرع ، ولا ينمو إلا من بذر الإيمان وقلما ينفع إيمان مع خبث القلب وسوء أخلاقه ، وكما لا ينمو بذر فى أرض سبخة فينبغى أن

يقاس رجاء المغفرة برجاء صاحب الزرع ، فكل من طلب أرضاً طيبة وألقى فيها بذراً طيباً غير عَفِنٍ ولا مُسوَّس ، ثم أمده بما يحتاج إليه فى أوقاته ثم نقى الشوك والحشيش وكل ما يمنع نبات البذرة أو يفسدُه ، ثم جلس منتظراً من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة إلى أن يَتمَّ الزرعَ ويبلَغَ غايتَه سُمى انتظارُه رجاءً ، وإن بث البذر فى أرض صلبة سبخة مرتفعة لا يصل إليها الماء ولم يشتغل بتعهد البذر أصلاً ثم انتظر الحصاد منه سُمِى انتظاره حُمقاً وغروراً لا رجاءً .

فإذن اسم الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ولم يبق إلا ماليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع المفسدات ، فالعبد إذا بث بذر الإيمان وسقاه بماء الطاعات وطهره من شوك الأخلاق الردئية ، وانتظر من

فضل الله تعالى تثبيتَه على ذلك إلى الموت وحسنَ الخاتمة المفضية كان انتظاره رجاءً حقيقياً .

الفرق بين الرجاء والغرور

الفرق بين الرجاء والغرور أن الرجاء إن حمل على العمل وحث عليه وساق إليه فهو صحيح ، وإن دعا إلى البطالة والانهماك فى المعاصى فهو غرور ، فمن كان رجاؤه هادياً إلى الطاعة وزاجراً له عن المعصية فهو رجاء صحيح ، ومن كانت بطالته رجاءً ورجاؤه تفريطاً فهو المغرور ، ولو أن رجلاً كانت له أرض يؤمِّل أن يعود عليه منها ما ينفعه فأهملها ولم يبذرها ولم يحرثها وحسن ظنه بأنه يأتى منها ما يأتى من حرث وبذر وسقى وتعاهد الأرض لعده النّاس من أسفه السفهاء ، وكذلك لو حَسُن ظنه وقوى رجاؤه بأن يجيئه ولد من غير جماع أو يصير أعلم أهل زمانه من غير طلب للعلم وحرِص تام عليه

وأمثال ذلك ، فكذلك من حَسُن ظنه وقوى رجاؤه فى الفوز بالدرجات العلا والنعيم والمقيم من غير تقرب إلى الله تعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه .

وكثير من الجُهَّال اعتمدوا على رحمة الله وعفوه وكرمه فضيّعوا أمره ونهيه ونسوا أنه شديد العقاب وأنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين ، ومن اعتمد على العفو مع الإصرار على الذنب فهو كالمعاند ، وسرُ المسألة : أن الرجاء إنما يكون من الإتيان بالأسباب التى اقتضتها حكمةُ الله فى شرعه وقدره فيأتى العبد بها ثم يُحْسنُ ظنه بربه ويرجوه أن لا يكله إليها ، وأن يجعلها موصَله إلى ما ينفعه ويُعرض عما يعارضها ويبطل أثرها ، مما ينبغى أن يُعلم أن من رجا شيئاً استلزم ثلاثة أمور :

أحدها : محبة ما يرجوه .

الثانى : خوفه من فواته .

الثالث : سعيه فى تحصيله بحسن الإمكان .

أما رجاء لا يقارنه شيء من ذلك فهو من باب الأمانى والرجاء شيء والأمانى شيء آخر فكل راج خائف والسائر على الطريق إذا خاف أسرع السير مخافة الفوات [1] .

---

(١) من البحر الرائق لفضيلة الشيخ أحمد فريد ـ حفظه الله ـ .

اللهُ عفوٌ وغفورٌ وتوابٌ رحيمٌ

ووصف الله نفسه بالعفو وبالغفور وبالتواب، ورحمته وسعت كل شيء، وبأنه أهل التقوى، وأهل المغفرة فى جملة مواطن :

قال سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُوراً﴾ (النساء : ٤٣) .

وقال سبحانه : ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيراً﴾ (النساء : ١٤٩)

ووصف نفسه بالغفور فقال : ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ (النساء : ١٠٠)

وقال سبحانه : ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر : ٥٣) .

وقال سبحانه : ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ

طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ (سبأ : ١٥)

وقال سبحانه : ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ (غافر : ٣) .

ووصف نفسه بأنه أهل المغفرة فقال : ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ (المدثر : ٥٦) .

وفى « الصحيحين » قال رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « يَنْزِلُ رَبُّنَا إلى السَّمَاء الدنْيَا فى الثّلُث الْأخير مِنَ اللَّيْلِ ، فيَقُولُ : هَلْ مِنْ مُستَغْفِرٍ فَأَغْفِرُ لَهُ . . . » [1] .

وأخرج مسلم فى صحيحه (حديث ٢٧٥٩) من حديث أبى موسى ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ يَدَهُ باللَّيْل ليَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَار وَيَبْسُطُ يَدَه بالنَّهَار ، ليَتُوبَ مُسِيء اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُع الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبهَا » .

---

(١) البخارى (حديث ١١٤٥) مسلم (حديث ٧٥٨) .

وأخرج الإمام أحمد فى مسنده (٣/ ٢٩) بسند صحيح من حديث أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول « إنَّ إبْليسَ قَالَ لرَبِّه بعزتكَ وَجَلالكَ ، لا أبْرَحُ أغْوِى بَنى آدَمَ مَا دامْت الأَرْوَاحُ فيهمْ ، فَقَالَ اللَّهُ : فَبِعِزَتِى وَجَلالِى لا أبرَحُ أغْفِرُ لَهُمَ مَا اسْتَغْفَرُونِى » .

التحذيرُ من اليأس والقنوطِ من رحمةِ اللهِ

فلا ينبغى أن يَقْنُطَ أحدٌ أبداً من رحمة الله ، فاليأس والقنوط من رحمة الله ـ عز وجل ـ كبيرة من الكبائر . قال سبحانه وتعالى : ﴿**وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ**﴾ (الحجر : ٥٦) .

وقال سبحانه : ﴿ **إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ (يوسف : ٨٧)

* وها هو رجل يكثر من شرب الخمر فَيُؤْتَى به إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخرج البخارى [١] من حديث عمر ـ رضى الله عنه ـ أنَّ رَجُلاً كَانَ عَلَى عَهْد النَّبِىِّ ـ صلى اللهُ عليه وسلم ـ كَانَ اسْمُهُ عَبْدُ اللَّه ، وكَانَ

---

(١) البخارى (حديث ٦٧٨٠) .

يُلَقَّب حمَاراً ، وكَانَ يُضْحكُ رَسُولَ اللَّه ـ صَلَّى اللهُ عليه وسلمَ ـ ، وكَانَ النَّبيُّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْه وسلم ـ قَدْ جَلَدَهُ فى الشَّرَاب ، فَأتى بَه يَوْماً فأمَرَ به فَجُلدَ ، فَقَال رَجُلٌ منَ القَوْم : اللَّهُمَّ العَنْهُ ، مَا أكثْرَ مَا يُؤتَى به ، فقَالَ النَّبىُّ ـ صلَّى اللهُ عَليه وسلم ـ : « لاَ تَلْعَنُوهُ فَوَ الله (١) مَا علَمْتُ أنَّهُ يُحب اللَّهَ وَرَسُولَهُ (٢) » .

---

(١) نقل الحافظ ابن حجر فى (ما) هنا أقوال أقربها ما نقله عن أبى البقاء فى إعراب الجمع أنه قال : ما زائدة أى فو الله علمت أنه . والهمزة على هذا مفتوحة قال : ويحتمل أن يكون المفعول محذوفاً أى علمت عليه أوفيه سوءاً ثم استأنف فقال : « إنه يحب الله ورسوله » .

(٢) عند أبى يعلى (١ / ١٦١) من طريق هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر أن رجلاً كان يُلَقَّبُ حمَاراً وكَانَ يُهْدى لرَسُول اللَّه ـ صلى اللَّه عليه وسلم ـ العَكَّةَ منَ السّمْن والعَكَّةَ منَ العَسَل ، فَإذاَ جَاءَ صَاحبُهَا يَتَقَاضَاهَا جَاءَ به إلى رسُول اللَّه ـ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلم ـ فَيَقُولُ : يَا رَسُولَ الله أعْط هذَا ثَمَنَ مَتَاعه فَمَا يَزيدُ رَسُولُ الله ـ صلَّى اللهُ عليه وسَلمَ عَلَى أنْ يَبْتَسمَ وَيَأمُر به فَيُعْطَى . . . فذكر الحديث وفى آخره : « لاَ تَلْعَنُوهُ فإنَّهُ يُحب اللهَ وَرسولَهُ » وإسناده حسن .

وفى رواية أن رجلاً قال : مَا لَهُ أَخْزَاهُ اللَّهُ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ـ صلّى اللهُ عليه وسلمَ ـ : لاَ تَكُونُوا عَوْنَ الشَّيْطَانِ عَلَى أخيكُمْ » (1) .

فجدير بالعبد أن لا يَقْنُطَ أبداً من رحمة الله ـ عز وجل ـ بل كلما سقط ووقع فى ذنب قام واستغفر وأناب فليس ثَمَّ أحد بمعصوم من الذنب وقد قال تعالى فى شأن المتقين الذين أعدت لهم الجنان : ﴿وسارِعوا إلىٰ مغفرةٍ مِن رَّبِّكُمْ وجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ والأَرْضُ أُعدَّتْ للْمُتَّقينَ﴾ (آل عمران : ١٣٣) فذكر من صفاتهم ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لذُنُوبهمْ وَمَن يَغْفرُ الذُّنُوبَ إلاَّ اللَّهُ ولَمْ يُصرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَئكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي من تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالدينَ فيهَا وَنعْمَ أَجْرُ الْعَاملينَ﴾ (آل عمران : ١٣٥ ، ١٣٦) فحتى التقى

---

(1) هى عند البخارى (حديث ٦٧٨١) .

قد تصدر منه كبيرة !! قد تزل قدمُه ويقع فى فاحشة !! ولكنه يُقلع عنها وينيب إلى ربه ويستغفر .

وها هم المرسلون قال تعالى : ﴿إِنِّى لا يَخَافُ لَدَىَّ الْمُرْسَلُونَ (١٠) إِلاَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (النمل : ١٠ ، ١١)

وموسى الكليم ـ عليه أفضل وأتم تسليم وعلى نبينا محمد عليه الصلاةوالسلام ـ ، قتل نفساً ، فقال : ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (القصص : ١٦)

وهؤلاء الذين جاءوا بالصدق وصدقوا به قال الله عنهم : ﴿ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى عَمِلُوا ﴾ (الزمر : ٣٥) ففيه دليل على أنهم عملوا شيئا من السوء [١] أ هـ .

(١) رسالة الاستغفار لشيخنا ـ حفظه الله ـ ص ٤٤ ـ ٤٨ بتصرف .

تحذير من يقنط الناس من رحمة الله

وكذلك فليحذر العبد من أن يُقَنِّط شخصاً من رحمة الله ، فهذا هو مصير الراهب الذى أفتى قاتل التسعة والتسعين نفساً بأنه لا توبة له ، قتله الجانى فأتم به المائة .

وصح عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : « كَانَ رَجُلان منْ بَنى إسْرَائيلَ مُتَوَاخيَيْن فكَانَ أحَدُهُمَا يُذْنبُ والآخر مُجْتَهدٌ فى العبَادَة ، فَكَانَ لاَ يَزَالُ الْمُجْتَهدُ يَرى الآخرَ عَلَى الذَّنْب فَيَقُولُ : أقْصرْ ، فَوَجَدَهُ يَوْماً عَلَى ذَنْب فَقَالَ لَهُ : أقْصرْ ، فَقَالَ : خَلِّنى وَرَبِّى أبُعثْتَ عَلىَّ رَقيباً ؟ فَقَالَ : وَاللَّه لا يَغْفرُ اللَّهُ لَكَ أوْ لاَ يُدْخلُكَ اللَّهُ الجنَّة ، فَقَبَضَ أرْوَاحَهمَا ، فَاجْتَمَعَا عنْدَ رَبِّ العَالَمينَ فَقَالَ لهَذَا الْمُجْتَهد : أكُنْتَ بى عَالماً ؟ أو كُنْتَ عَلَى مَا فى يَدى قَادراً ؟ وَقَالَ للمُذْنب : اذْهَبْ فَادْخُل الجَنَّةَ

بِرَحْمَتِى ، وَقَالَ للآخَرِ : اذْهَبُوا به إلى النَّارِ »[1] .

قال أبو هريرة : والذى نفسى بيده لتكلم بكلمة أَوْبَقَتْ[2] دنياه وآخرته .

وفى صحيح مسلم[3] من حديث جندب ـ رضى الله عنه ـ أنَّ رسولَ الله ـ صلى اللهُ عليه وسلمَ ـ حَدَّثَ « أنَّ رَجُلاً قَالَ : وَالله ! لا يَغفرُ اللَّهُ لفُلاَن وَإنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ : مَنْ ذَا الذى يَتَألى[4] عَلَيَّ أنْ لا أغْفرَ لفُلان فَإنِّى قَدْ غَفَرْتُ لفُلاَن وأَحْبَطتُ عَمَلَكَ ، أو كما قال .

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٠١) وإسناده حسن .
(٢) أوْبَقَتْ : أهلكت .
(٣) مسلم (حديث ٢٦٢١) .
(٤) يتألى : أى يحلف .

فتح باب التوبة لمرتكبى الكبائر

وفتح الله ـ عز وجل ـ باب التوبة والإنابة إليه والاستغفار بعد كل كبيرة من الكبائر حتى لا يقنط أحد من رحمة الله ـ عز وجل ـ فها هى كبار الذنوب وعظام الجرائم الشرك والقتل والزنا يفتح الله الباب أمام مرتكبيها كى يتوبوا منها قبل موتهم قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ (الفرقان : ٦٨ ـ ٧١) .

وها هم أصحاب الأخدود الذين كفروا وظلموا،

وحرّقوا المؤمنين والمؤمنات وقذفوهم فى النار . وما كان للمؤمنين والمؤمنات من ذنب إلا أنهم آمنوا بالله العزيز الحميد ، هؤلاء أصحاب الأخدود الذين فرّقوا بين الوالدة وولدها ، وقذفوا ولدها أمام عينها فى النار ، وجلسوا على حافة الأخدود يتلذذون بمشاهدة أهل الإيمان وهم يُقذفون فى النيران ويستمتعون بذلك ، هؤلاء أصحاب الأخدود الذين اجتهدوا غاية الاجتهاد لصرف الناس عن دينهم ، مع كل هذه الجرائم التى صدرت منهم يفتح الله لهم باب التوبة كى يتوبوا قال ـ سبحانه وتعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ** ﴾ (البروج : ١٠) مفهوم الآية الكريمة : أنهم إذا تابوا لم يعذبوا [(١)] .

(١) قال الرازى فى تفسيره : قوله تعالى « ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا » البروج : ١٠ يدل على أنهم لو تابوا لخرجوا عن هذا الوعيد ، وذلك يدل على =

فقوله سبحانه ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ يُفيد أنهم لو تابوا قَبلَ الله توبتهم ، سبحانك يا ربنا ما أحلمك وما أرحمك !!!

وها هم قطاع الطرق تفتح أمامهم أبواب التوبة كى يتوبوا ويرجعوا عن غيهم وفسادهم ، ويقطعون عن الناس شرهم . قال الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِى الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (المائدة : ٣٣ ، ٣٤) .

= القطع بأن الله يقبل التوبة ، ويدل على أن توبة القاتل عمداً مقبولة خلاف ما يرى ابن عباس ، ونقل الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ عن الحسن البصرى قوله : انظروا إلى هذا الكرم والجود قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة .

وها هم الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات : تُفتَحُ أمامهم أبواب التوبة والإنابة إلى بارئهم ومولاهم كي يتوبوا ويُقبلوا على عمل الصالحات وإقامة الصلاة وترْكِ الشهوات .

قال ـ سبحانه وتعالى ـ ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ (مريم : ٥٩ ، ٦٠)

وهؤلاء الذين يرتكبون الكبائر البَشعَةَ من قذف المحصنات الغافلات المؤمنات بالزنا والفاحشة : تُفْتَحُ أمامهم أبواب التوبة من هذا الذنب الكبير ، فيقول سبحانه : ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ

وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (النور : ٤ ، ٥) وقد اشترط كثير من أهل العلم أن يُكذِّب هذا القاذف نفسه ، ويُظْهِرُ براءة المؤمنة أو المؤمن المقذوف من التهمة التى رماه بها .

أخى الحبيب ـ بعد هذا لا يسعك أمام هذه النصوص إلا أن تُسارع إلى التوبة النصوح قال تعالى : ﴿ **وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ** ﴾ (النساء : ٢٧) وهو يحب التوابين ويفرح بتوبة عبده وهو سبحانه لا يتعاظمه ذنب فمهما عَظُم ذنبك فهو شىء ورحمة الله وسعت كل شىء فانظر إلى سعة رحمة الله ـ عز وجل ـ وعظيم عفوه تُفْتَحُ أبواب التوبة للتائبين حتى لا يقنط أحد من رحمة الله ولا ييأس أحد من روح الله ﴿ **إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ (يوسف : ٨٧) فمهما فعلت من الذنوب لا يمكن أن تأتى على رحمة الله كلها بل هى تشملك

فرحمته وسعت كل شيء ، وهذا يناسب كمال صفاته تبارك وتعالى وأسمائه العُلى وتحقيق لاسمه الغفور التواب الرحيم العفو الكريم الحليم فمقتضى هذه الأسماء والصفات ، لا يأتى إلا مع العصاة المجرمين .

رجل قتلَ تِسعةً وتسعين إنساناً

عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « كَانَ فى بَنى إسْرَائيل رَجُلٌ قَتَلَ تسْعَةً وَتسْعينَ إنْسَاناً ، ثُمَّ خرَجَ يَسْألُ فَأتَى رَاهباً فَسَألَهُ فَقَالَ لَهُ : هَلْ مَنْ تَوبَة ؟ قَالَ : لاَ فَقَتَله فَجَعَل يَسْألُ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ : ائْتَ قَرْيَةَ كَذَا وكَذا فَأدْركَهُ المَوْتُ فَنَاءَ بصَدْره نَحْوَهَا فاخْتَصَمَتْ فيه مَلائكَةُ الرَّحْمَة وَمَلائكةُ الَعَذَابَ فَأوْحَى اللَّه إلى هَذه أَنْ تَقَرَّبى وَأَوْحَى اللَّهُ إلَى هَذه أنْ تَبَاعَدى، وقَال : قيسُوا فوجدَ إلَى هَذه أقرَبَ بشبَر فَغُفرَ لَهُ » . وللحديث لفظ أطول عند مسلم وهو « أنَّ نَبىَّ اللَّه ـ صلى اللهُ عليه وسلم ـ قَالَ : « كَانَ فيمَنْ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تسْعَةً وَتسْعينَ نَفْساً فَسَألَ عَنْ أعْلَمَ أهْل الأرْض فَدُلَّ عَلَى رَاهبٍ فَأتَاهَ ، فَقَالَ : إنَّهُ قَتَل تسْعَة وَتسْعينَ نَفَساً

فَهَل لَهُ منْ تَوْبَة ؟ فَقَالَ : لاَ فَقَتَلَه فَكَمَّلَ به مائَة ثُمَّ سَأل عَنْ أعْلَمَ أهْل الأرْض فَدُلَّ عَلَى رَجُل عَالم فَقَالَ إنَّهُ قَتَل مائَةَ نَفَس فهَل لَهُ منْ تَوْبَة ؟ فَقَالَ : نَعَمْ وَمَنْ يَحُول بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوبَة ؟ !انْطَلقْ إلَى أرْض كَذَا وكَذا فَإنَّ بهَا أنُاساً يَعبُدونَ اللَّهَ ، فَاعْبد اللَّهَ مَعَهمْ ، ولاَ تَرْجعْ إلَى أرْضكَ فَإنَّهَا أرْض سُوء فَانْطَلَق حَتى إذَا نَصَفَ الطريق أتَاهُ المُوتُ فَاخْتَصَمَتْ فيه مَلائكَةُ الرَّحْمَة وَمَلائكَةُ العَذَاب فَقَالتْ مَلائكَةُ الرَّحْمَة : جَاء تَائباً مُقْبلاً بقَلبه إلَى اللَّه ، وَقَالتْ مَلائكَةُ العَذَابَ : إنَّهُ لَمْ يَعْمَل خَيْراً قَط ، فَأتَاهُم مَلَكٌ في صُورَة آدَمي فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُم فَقَال قيسُوا مَا بَيْنَ الأرْضَيْنَ ، فَإلَى . . أيَتّهمَا كَانَ أدْنَى فَهوَ لَهُ فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أدنَى إلَى الأرْض التى أرَادَ فَقَبَضَتْهُ ملائكَةُ الرَّحْمَة » (١) .

قال الحافظ ابن حجر فى فتح البارى (٦ / ٥٩٧)

---

(١) البخارى (حديث ٣٤٧٠) مسلم (حديث ٢٧٦٦) .

وفى الحديث مشروعية التوبة من جميع الكبائر حتى من قتل الأنفس .

وقال الحافظ أيضاً : قال عياض : وفيه أن التوبة تنفع من القتل كما تنفع من سائر الذنوب ، وهو وإن كان شرعا لمن قبلنا وفى الاحتجاج به خلاف لكن ليس هذا من موضع الخلاف لأن موضع الخلاف إذا لم يَردْ فى شرعنا تقريرهُ وموافقته أما إذا ورد فهو شرع لنا بلا خلاف ومن الوارد فى ذلك قوله تعالى : ﴿ **إنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ** ﴾ (النساء : ٤٨) وحديث عبادة بن الصامت ففيه بعد قوله : « وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ » وغير ذلك من المنهيات « فَمَنْ أصَابَ مِنْ ذَلك شَيْئاً فأمْرُهُ إلىَ اللَّه إنْ شَاءَ عَفَا عَنْه وَإن شَاءَ عَذَّبَهُ » متفق عليه .

قلت : القائل هو الحافظ : ويؤخذ ذلك أيضا من جهة تخفيف الآصار عن هذه الأمة بالنسبة إلى من قبلهم

من الأمم ، فإذا شُرع لهم قبول توبة القاتل فمشروعيتها لنا بطريق الأوْلى » أ هـ .

ـ فانظر أخي الحبيب . . يا من أسرفت على نفسك وبلغت ذنوبك عنان السماء هذا رجل لم يعمل خيراً قط وليس ذلك فحسب بل قتل مائة نفس لكنه لما جاء تائباً مُقبلا بقلبه على ربه فما كان من أمره إلا أن غفر الله له ذنوبه وعفا عنه وكان من أهل الجنة فما ظنك برب العالمين إنه أرحم الراحمين . هيا أقبل على ربك ، ارجع إلى ربك ، من الذي أتى باب الله فوجده مغلقاً ! من الذي أقبل على الله فرده ؟ ! من الذي استعان بالله فما أعانه ؟ ! من الذي استغاث بالله فما أغاثه ؟ ! من الذي تاب إلى الله فما تاب عليه إنه الكريم الحليم العفو الغفور الرحيم الودود الكريم « أرْحَمُ بكُمْ منَ الأم بولَدهَا » ويحب من عباده التوابين ، طِرْ بجناَحي اَلخوف وَالرجَاء إلى ربك الكريم الوهاب .

غفران الذنوب لمن ذكر علام الغيوب

عن عبد الله بن عمرو بن العاص يقولُ : قالَ رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « إنَّ اللَّه سَيُخَلِّصُ[1] رَجُلاً منْ أُمَّتي عَلَى رُءُوس الخَلائق يَوْمَ القيَامَة ، فَيَنْشُرُ عَلَيْه[2] تسْعَةً وتسْعينَ سجلاً كلَ سجل مثْل مَدِّ البَصَر ، ثُمَّ يَقُولُ أَتُنْكرُ منْ هَذَا شَيْئاً ؟ أظَلَمَكَ كَتَبتي الحَافظُونَ ؟ فَيَقُولُ : لا يارَبِّ فَيَقُولُ : أفلَكَ عُذر ؟ فيقُولُ : لاَ يارَبِّ فَيَقُولُ بَلَى إن لكَ عنْدَنا حَسَنَةً[3] فَإنَّهُ لا ظُلْمَ عَلَيْكَ اليَوْمَ فَتَخرجُ بطَاقَة فيهَا أشْهَدُ أنْ لاَ إله إلا اللَّه وَأشْهَدُ أنَّ مُحَمَّداً

(١) قال المباركفوري (تحفة الأحوذي ٧ / ٣٩٥) : أي سيميز ويختار ، وفي رواية ابن ماجة « يُصَاحُ بِرَجُلٍ من أمتي يوم القيامة على رءوس الخلائق » .

(٢) ينشر : أي يفتح .

(٣) أي واحدة عظيمة مقبولة .

عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ فَيَقُولُ : احْضرْ وَزْنَكَ فَيَقُولُ : يَارَبِّ مَا هَذه البْطَاقَةُ مَعَ هَذه السِّجلات . فَقَالَ : إنَّكَ لا تُظْلَمُ قَالَ فَتوضَعُ السِّجلَاتُ فى كفةَ والبطَاقَةُ فى كفة فَطَاشَتَ السِّجَلات[1] وَثقُلَت اَلبطَاقَةُ . فَلاَ يَثْقُل مَعَ اسْـمِ اللَّهَ شَىْء »[2]« حديث صَحيح »

انظر ـ أخى الحبيب ـ هذا الحديث ليس فيه دعوى إلى الإكثار من المعاصى واستحلال الكبائر ، لكن هذا الحديث مخرجه بيان فضل التوحيد ، فإذا اتخذته أصلاً وتركت غيره من الأحاديث وقعت فى الإرجاء ، فهذا الحديث يُبينُ ربنُّا ـ سبحانه وتعالى ـ فيه فضل كلمة التوحيد ، وفى نفس الوقت أراد الله سبحانه أن يغفر لمرتكب هذه السيئات كل سيئاته لأن الله قال : « يَغْفرُ لِمن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ

---

(١) طاشت السجلات : أى خفت السجلات .

(٢) الترمذي (حديث ٦٤٤) ابن ماجة (حديث ٤٣٠٠) وأحمد (٢ / ٢١٣) (٢ / ٢٢١ ، ٢٢٢) قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب .

مَنْ يَشَاءُ » فغفر الله لهذا الرجل كل ما اقترف من سيئات وكبائر . والله قادر على هذه المغفرة فهو سبحانه : « غَافِرُ الذَّنب وَقَابِلِ التَّوْب » . وهو سبحانه : لاَ رَادّ لِقَضَائه وَلاَ مُعَقِّبَ لحكْمه فكونك تأتى ، وتقول أيضاً سيغفر لى كل ما صدر منى كما غفر للرجل ؟ أخطأت فمن الذى أدراك أنه سيغفر لك هذه الكبائر وهذه الذنوب . فإذا أخذك الله فَبعَدْله ، وإذا أكرمك الله فبعفوه ـ سبحانه وتعالى ـ فلا يلزم أبَدَاً أن يغفر لك فكونك تأتى تَجْعَلْ هذا الحديث حكماً على كل الشرع وتترك جملة من الأحاديث فى هذا الباب ، فإن فعلت ذلك فد انزلقت فيما انزلق فيه غيرك ، ووقعت فى الإرجاء وهذه بعض الأدلة التى ينبغى أن توضع مع هذا الحديث لكى تخرج بفقه مستقيم مسدد فمن كتاب الله :

قال الله تعالى : ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِه﴾ وقال الله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ

ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾وقال الله تعالى ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ والآيات فى هذا المعنى كثير .

ومن السنة المطهرة :-

ما أخرجه مسلم (حديث ٢٥٨١) من حديث أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسولُ الله ـ صلى اللهُ عليه وسلم ـ : « أتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ ؟ قالوا : الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلا مَتَاعَ فَقَال « إنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أمَّتى يَأتى يَوْمَ الْقِيَامَة بصَلاة وَصِيَام وَزَكاة ، وَيَأتى وَقَدْ شَتَم هَذَا وَقَذَفَ هَذَا ، وَأكَلَ مَالَ هَذَا ، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا ، وَضَرَبَ هَذَا ، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاته وَهَذَا مِنْ حَسَنَاته فَإنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُه قَبْلَ أنْ يقْضى مَا عَلَيْه ، أخذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْه ثُمَّ طُرِحَ فِى النَّار » .

وأخرج مسلم فى صحيحه (حديث ٢٥٨٢) من حديث أبى هريرة : أنّ رسولَ الله ـ صلى اللهُ عليه وسلمَ ـ

قَالَ : « لَتُؤدُنَّ الحُقُوقَ إلى أهْلِهَا يَوْمَ القِيَامَة حَتَّى يُقَاد للشَّاة الجَلْحَاء منَ الشَّاة القَرْنَاء » .

وأخرج مسلم فى صحيحه (حديث (٢٥٨٣) عن أبى موسى قال : قال رسولُ الله ـ صلّى اللهُ عليه وسلمَ ـ « إنَّ اللَّهَ ـ عَز وَجَلَّ ـ يُمْلى للظَّالم ، فإذا أخَذَهُ لَم يُفْلتْهُ » ثمَّ قَرَأَ : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (١١ / هود : ١٠٢)

ولشيخنا أبى عبد الله مصطفى بن العدوى ـ حفظه الله ـ بحث مفيد نافع فى هذا الباب ـ نورد منه هنا ما يقتضيه المقام . قال : من الخطر الناشىء عن الأخذ ببعض الأدلة وترك البعض .

فى مجال العقائد :

أما المرجئة فعمدوا إلى حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « مَنْ شَهِدَ أنْ لا إلهَ إلا اللَّه ، وأنَّ مُحَمَّداً

رَسُولُ اللَّه حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّار » أخرجه مسلم (٢٩) من حديث عبادة بن الصامت ـ رضى الله عنه ـ مرفوعاً .

وحديث عثمان ـ رضى الله عنه ـ فى صحيح مسلم : « مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أنْ لا إلهَ إلاَ اللَّه دَخَلَ الجَنَّةَ » أخرجه مسلم (٢٦) من حديث عثمان ـ رضى الله عنه ـ مرفوعاً .

وإلى قول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « فَإنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّار مَنْ قَالَ لا إلَهَ إلا اللَّه يَبْتَغى بذَلك وَجْهَ اللَّه» .

* وحديث : « مَنْ صَلَّى البَرْدَيْن دَخَلَ الجَنَّةَ » .

* وحديث : « مَن اغْبَرَّت قَدَمَاه فى سَبيل اللَّه حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّار » .

وقوله ـ صلّى اللهُ عليه وسلمَ : « لاَ يَجْتَمعُ كَافرٌ وَقَاتلُهُ فى النَّار أبَداً » .

وغير ذلك من الأحاديث التى على هذا النحو

والمنوال !!! وأخذوا أيضاً بقوله تعالى : ﴿ **فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ** ﴾ .

فقالوا : إن الله عز وجل قال : فأثابهم الله بما قالوا ، واقتصر هنا على القول . إلى غير ذلك من الآيات التى على هذا النحو .

فحكموا لمن اقتصر على قول لا إله إلا الله بالإيمان والنجاة من النيران وإن لم يعمل خيراً قط !!! .

وبالغ بعضهم مبالغة شديدة وقال : إن من قالها فهو على إيمان كإيمان جبرائيل وإسرافيل !!!

وضل آخرون منهم ضلالاً بعيداً إذ قال : إن من قال لا إله إلا الله فهو مؤمن وإن اعتقد التثليث بقلبه !!!

وهذا نوع من أنواع الكفر الصُّراح .

وتغافلوا عن قوله تعالى فى جُلِّ آيات الكتاب : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ .

فردف الإيمانَ بالعمل .

وتركوا قول الله جل ذكره : « إنَّ المنَافقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إلىَ الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ ولاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إلا قَلِيلاً . . » إلى قوله تعالى : ﴿**إنَّ الْمُنَافقِينَ فِى الدَّرْكِ الأَسْفَلِ منَ النَّارِ وَلَن تَجدَ لَهُمْ نَصِيراً . . .**﴾ (النساء : ١٤٢ ـ ١٤٥) .

فالآية الكريمة تفيد أنهم يصلون ولكنهم إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى ويزكون إلا أنهم كما قال تعالى : ﴿**وَلا يُنفقُونَ إلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ**﴾ (التوبة : ٥٤) .

وتركوا قوله تعالى : ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ** ﴾ (الماعون : ٤ ـ ٥) .

فهم يصلون إلا أنهم ساهون عن الصلاة .

وتركوا قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ (١٥) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إلاَّ**

مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (الأنفال : ١٥ ـ ١٦) .

فنسوا أن هؤلاء مجاهدون خرجوا للجهاد فى سبيل الله إلا أنَّ زحف الكفار أرهبهم وشعاع السيوف أزعجهم فرجعوا وولوا الأدبار فجاء فيهم الوعيد الشديد !!

نسوا حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «أتدرون مَا الْمُفْلسُ ؟ قالوا : الْمُفْلسُ فِينَا مَنْ لا دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ ، فَقَالَ : « إنَّ الْمُفْلسَ منْ أمَّتِى يَأتى يَوْمَ الْقيَامَة بصَلاة وَصيَام وزَكَاة ، ويَأتى وَقَدْ شتَمَ هَذَا ، وقَذَفَ هَذَا ، وأكَلَ مَالَ هَذَا ، وسَفَكَ دَمَ هَذَا ، وَضَرَبَ هَذَا ، فَيُعْطَى هَذَا ، منْ حَسَنَاته ، وهَذَا منْ حَسَنَاته . فَإنْ فَنيَتَ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أنْ يَقْضىَ مَا عَلَيه أخذَ منْ خَطَايَاهُم فطُرحَتْ عَلَيْه ، ثُمَّ طُرحَ فى النَّار » فهاهو قد طرح فى النار وقد قال لا إله إلا الله وأتى بصلاة وصيام وزكاة ولكن ولات حين . . !!!

وتركوا حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوق وَقِتَالُهُ كُفْرٌ » .

وتركوا الوعيد الذى جاء فى الكتاب العزيز والسنة النبوية لأكلة الربا والزناة وأكلة السحت والمصورين والمسبلين والغشاشين وقطَّاع الأرحام وقُطّاع الطرق والمتبرجات وأكلة أموال اليتامى ظُلماً وشهود الزور والمغتابين واللصوص و . . . و . . . و . . . !!!!

فَضَلَّت المرجئة وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ! وهذا مصير من أخذ من الأدلة وترك جانبا آخر ! !هذا مصير المتميِّع الذى أخذ أحاديث ظن أنها توافق تميعه ! !

وذاك مصير المتشدد الذى أخذ أحاديث ظن أنها تزكى تشدده ! !

ولكن أهل السنة والجماعة ـ وفقهم الله وسدد على

الطريق خطاهم ـ أخذوا بهذه النصوص وتلك وجمعوا بينها ووفقوا ، وآلفوا بينها وسُدِّدوا ، فرفعوا الإشكال للمسلمين ، وأنزلوا الشُّبه ، وكشفوا الحجب ، فجزاهم الله خيراً ، ورفعهم الله قدراً . فهب أن هناك قاطعاً للرحم يقول لا إله إلا الله ، فهل نطبق عليه رأى الخوارج ونقول : إن الجنة عليه حرام !! هل نأخذ بحديث : « مَنْ قَالَ لاَ إِلهَ إِلا اللَّه دَخَلَ الجَنَّةَ » ونترك حديث « لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَاطِعٌ » كما فعلت المرجئة ؟!! أو نعكس كما فعلت الخوارج ؟!! أو نأخذ بهما معاً لاشك أننا مأمورون بالأخذ بهما معاً [1] .

---

(١) مفاتيح للفقه في الدين صـ ١٤ ـ ١٩ ، لمزيد راجع هذا الكتاب الماتع نفع الله به كاتبه وقارئه والأحاديث التي أوردتها في بحث شيخنا ـ حفظه الله ـ صحيحة انظر المصادر هناك غير مأمور .

اللهُ يغفرُ للعبدِ إنّ تابَ وسترَ ذنبَه ولمْ يفضحْ نفسَه

في الصحيحين من حديث أبي هريرة قال : سمعتُ النبي ـ صلّى اللهُ عليه وسلمَ ـ قال : « إنّ عَبْداً أصَابَ ذَنْباً ـ ورُبّما قَالَ : أذْنَبَ ذَنْباً ـ فَقَالَ : رَبِّ أذْنَبْتُ ذَنْباً ـ ورُبَّمَا قَالَ أصبت ـ فَاغْفرَ ، فَقَالَ رَبّه : أعَلِمَ عَبْدى أنَّ لَهُ رباً يَغْفرُ الذَّنْبَ ويأخُذُ به ؟ غَفَرتُ لعَبْدى : ثمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ أصَابَ ذَنباً ـ أوْ أذْنَبَ ذَنباً ـ فقال أذْنَبْتُ ـ أوْ أصَبْتُ ـ آخَرَ فَاغْفرْه ، فَقَالَ : أعَلمَ عَبْدى أنَّ لَهُ رَبّا يَغْفرُ الذَّنْب ويَأخُذُ به ؟ غَفَرتُ لعَبْدى ثمَّ مَكَثَ مَا شَاء اللَّهَ ، ثُم أذنَبَ ذنَبْاً وربمَا قال : أصَابَ ذَنْباً ـ فَقَالَ : رَبِّ أصَبْتُ . . أوْ أذْنَبْتُ آخَرَ فَاغفرْهُ لي ، فَقَال : أعَلمْ عَبْدى أنَّ لَهُ رَبّاً يَغْفرُ الذَّنْبَ ويَأخُذُ به ؟ غَفَرْتُ لعَبْدى ـ ثَلاثاً ـ فلْيَعْمَلْ مَا شَاء » (١)

قال الإمام النووي ـ رحمه الله ـ معناه : ما دمت تذنب ثم تتوب غفرت لك أ هـ .

---

(١) البخاري (حديث ٧٥٠٧) مسلم (حديث ٢٧٥٨) .

وهذا يفسره حديث أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بسند صحيح من حديث أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال سمعتُ رسولَ الله ـ صلى اللهُ عَلَيْه وسلمَ ـ يقولُ : « إنَّ إبْليسَ قَالَ لربِّه : بعزَّتك وَجَلالكَ لا أَبْرَحُ أغْوى بَنى آدمَ مَا دَامَت الأَرْوَاحُ فَيهم فَقَالَ اللَّهَ : فَبعزتى وَجَلالى لا أبْرَح اغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفرونى » المسند (٣ / ٢٩)

قال شيخنا ـ حفظه الله ـ : وليس هذا فيمن يجاهر ربه بالمعاصى ، ويقول : سيغفر لى ، بل فى حق التائب الوجل الخائف من ربه [١] .

قال القرطبى فى (المفهم) : يدل هذا الحديث على عظيم فائدة الاستغفار وعلى عظيم فضل الله وسعة رحمته

---

(١) انظر الصحيح المسند من الأحاديث القدسية لشيخنا ـ حفظه الله صـ ٦٣ .

وحلمه وكرمه ، لكن هذا الاستغفار هو الذى ثبت معناه فى القلب مقارناً للسان لِيَنْحَلَّ به عقد الإصرار ويحصل معه الندم ، فهو ترجمة للتوبة . أ هـ من فتح البارى (١٣ / ٤٨٠) . قلت : ويتأيد هذا القول بقول الله سبحانه : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (آل عمران : ١٣٥) .

جنات النعيم لِمَنْ أنظر معسراً أو حطّ الدينَ عن المدين

عن حذيفة قال : قَال رَسولُ الله ـ صلّى اللهُ عليه وعلى آله وسلم ـ : « تَلَقَّت المَلائكَةُ رُوحَ رجُل مِّمَّنْ كَانَ قَبْلَكُم فَقَالوا : أعَملْتَ منَ الخَيْرِ شَيْئاً ؟ قَال : لا . قَالُوا : تَذَكَّر قال : كُنتُ أدَايِنَ النَاسَ فآمُرُ فتْيَانى أنْ يَنظروا المعُسر وَيَتَجوزَّوا عَنِ الموُسرَ قال : قال اللّهَ ـ عَز وَجَل ـ : تجوَّزَوا عَنْهُ » (١) .

وفى بعض الروايات « نَحْنُ أحَقُّ بذَلك منْهُ تجَـوَّزوا عَنْ عَبْدى » .

قـال الإمـام النووى ـ رحـمـه الله ـ : وفى هذه الأحاديث فضل إنظار المعسر والوضع عنه ، إما كل الدَّيْنِ

(١) أخرجه البخاري (حديث ٢٠٧٧) وفي عده مواضع من صحيحه ومسلم (حديث ١٥٦٠) .

وإما بعضه من قليل أو كثير ، وفضل المسامحة فى الاقتضاء وفى الاستيفاء سواء استوفى من موسر أو معسر وفضل الوضع من الدَّينْ ، وأنه لا يحتقر شىء من أفعالَ الخير فلعله سبب السعادة والرحمة [(١)] أ هـ .

قال الحافظ ابن حجر فى الفتح (٤ / ٣٦٢) : وفى حديث الباب والذى قبله أن اليسير من الحسنات إذا كان خالصاً لله كفَّر كثيراً من السيئات » .

---

(١) مسلم بشرح النووي (١٠ / ٢٢٤) .

التبشيرُ بالجنان لمنَ خشى الرحيمَ الرحمنَ

عن حذيفة عن النبىّ - صلّى اللهُ عليه وسلمَ - « كَانَ رَجُلٌ ممَّنْ كَانَ قَبْلَكُم يُسىءُ الظَّنَّ بعَمله فَقَالَ لأهْله إذَا أنَا مُتُّ فَخُذُونى فَذَرُّونى فى البَحْر فى يَوْم صَائف[1] فَفَعَلُوا فَجَمَعَهُ اللَّهُ ، ثُم قَالَ : مَا حَمَلكَ عَلى الذى صَنَعْتَ ؟ قَال : مَا حَمَلَنى عَلَيه إلا مَخَافتُك فَغَفَر لَهُ » أخرجه البخارى (حديث ٦٤٨٠) وللحديث روايات أخر يفسر بعضها بعضاً فعن أبى سعيد عن النبىِّ - صلى اللهُ عليه وسلم - «أنَّه ذكَرَ رجُلاً فيمَن سَلَفَ - أو فيمَنْ كَانَ قَبْلَكم - قَالَ كَلمَة يَعْنى أعْطَاهُ اللّهُ مَالاً وَوَلَداً فلمَّا حَضرَت الوَفَاة قَالَ لبنيه : أى أب كنت لكم ؟ قَالُوا : خَيْرَ أب ، فَإنّه لَم يَبْتَئر[2]

(١) في بعض الروايات في يوم حار ، وفي بعضها في يوم رائح (أى شديد الريح) وفي بعضها في يوم عاصف .

(٢) وفي رواية البخاري (٦٤٨١) فسرها قتاده بأنها : لم يدخر .

ـ أولَمْ يَبْتَئِز ـ عندَ اللَّه خَيْراً وإنْ يَقْدر اللَّهُ عَلَيْه يُعَذِّبْهُ فَانْظُرُوا إذا مُت فأحرقُونى حَتَّى إذَا صرْتُ فَحْماً فَاسْحَقُونى ـ أوَ قَال فاسَحكونُى ـ فَإذا كَان يَومُ ريح عَاصف فَأَذرُونى فيهَا فَقَال نَبىُّ اللّه ـ صلّى اللهُ عليه وسلمَ ـ : فَأخَذَ مَوَاثيقَهُمْ عَلَى ذلكَ، وربِّى ففعلوا! ثُمّ أذرُوهُ فى يَوم عَاصفَ فَقَال اللّه ـ عَز وَجَل ـ : كُنْ [1] فَإذا هُوَ رَجل قَائمٌ قَالَ اللهُ : أىْ عَبْدى ، مَا حَملَكَ عَلَى أنْ فَعَلتَ مَا فَعَلْتَ ؟ قَالَ : مَخَافَتُكَ ـ أوْ فَرَقٌ منْكَ ـ قَالَ : فَمَا تَلافَاهُ أنْ رَحمَهُ عنْدَهَا ، وقَال مَرَّة أخْرَى : « فَمَا تَلاَفَاهُ غَيرُها »[2] فحدَّثتُ به أبا عثمان فقال : سمعت هذا من سلمان غير أنه زاد فيه أذْرُونى فى البَحْر أو كَمَا حَدَّثَ » [3] .

---

(١) في هذا بيان قدرة الله عز وجل « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » .

(٢) أى فما تداركه غيرها .

(٣) أخرجه البخاري (حديث ٧٥٠٨) مسلم (حديث ٢٧٥٧) .

وعن أبى هريرة أنَّ رسـولَ اللّه ـ صلى اللهُ عليـه وسلمَ ـ قَالَ : « قَالَ رَجُلٌ لَمْ يَعَمل خَيراً قَطُّ إذَا مَاتَ فَحَرِقُوهُ وَاذْرُوا نصْفَه فى البر وَنصْفَه فى البَحْر فوَ اللَّه لَئنْ قَدرَ اللَّه عَلَيْه ليُعذِّبَنَّهُ عَذَاباً لا يُعَذِّبُه أحَداً منَ العَالمينَ ، فأمَرَ اللَّهُ البَحْرَ فَجَمَع مَا فيه ، وأمَرَ البَّر فَجَمَع مَا فيه ثمَّ قَال لمَ فَعَلْتَ ؟ قَالَ : منْ خَشْيَتكَ وأنتَ أعلَمُ فَغَفَر لَهُ »[(1)] .

قال الحافظ ابن حجر فى فتح البارى (٦ / ٦٠٤) قوله : « فَوَ اللَّه لَئنْ قَدَر اللَّهُ عَلَىَّ » فى رواية الكشميهنى « لَئن قَدَر عَلَىَّ رَبِّى » . قال الخطابى : قد يستشكل هذا فيقال : كيف يغفر له وهو منكر للبعث والقدرة على إحياء الموتى ، والجواب أنه لم ينكر البعث وإنما جهل فظن أنه إذا فعل ذلك به لا يعاد فلا يعذب ، وقد ظهر إيمانه باعترافه بأنه إنما فعل ذلك من خشية الله . قال ابن قتيبة : قد يغلط

(١) أخرجه البخارى (٣٤٨٠) وأخرجه مسلم (٢٧٥٦) .

فى بعض الصفات قوم من المسلمين ، فلا يكفرون بذلك
ورده ابن الجوزى ، وقال : جحده صفة القدرة كفر اتفاقاً
وإنما قيل : أن معنى قوله : « لَئِنَ قَدَرَ اللَّهُ عَلَىَّ » أى ضّيق
علىَّ ، وهى كقوله : « وَمَن قُدِرَ عَلَيه رِزْقُهُ » أى ضيق ،
وأما قوله « لَعَلِّى أضلُّ اللَّه » فمعناه : لعلى أفوته ، يقال :
ضل الشيء إذا فات وذهب ، وهو كقوله : « لاَ يضَلُ رَبِى
وَلا يَنْسَى » ولعل هذا الرجل قال ذلك من شدة جزعه
وخوفه ، كما غلط ذلك الآخر فقال : « أنْتَ عَبْدى وأناَ
رَبُّكَ » أو يكون قوله : « لَئِنْ قدَّر عَلى » بتشديد الدال : أى
قدَّر على أن يعذبنى ليعذبنى ، أو على أنه كان مثبتاً للصانع
وكان فى زمن الفترة فلم تبلغه شرائط الإيمان . وأظهر
الأقوال أنه قال ذلك فى حال دهشته وغلبه الخوف عليه
حتى ذهب بعقله لما يقول ، ولم يقله قاصداً لحقيقة معناه
بل فى حالة كان فيها كالغافل والذاهل والناسى الذى لا

يؤاخذ بما يصدر منه ، وأبعد الأقوال من قال إنه كان فى شرعهم جواز المغفرة للكافر .

فائدة : عقَّب البخارى هذا الحديث فى أحاديث الأنبياء (٣٤٨١) بحديث « عُذبَت امرأةٌ فى هرة ربَطتهَا حتَّى مَاتَتْ فَدَخَلَتْ فيهَا النَّارَ لا هىَ أطْعَمَتهَا وَلَا سَقَتْهَا إذْ حَبَسَتْهَا ولا هىَ تَرَكَتْهَا تَأكلُ منْ خَشَاشِ الأرْض » . وكذلك فعل مسلم ـ رحمه الله ـ وقال الزهرى هناك « عند مسلم » : ذلك لئلا يتكل رجل ولا ييأس رجل ، وقال النووى : « فى تفسيره معنى قول الزهرى » : معناه أن ابن شهاب لما ذكر الحديث الأول خاف أنَّ سامعَهُ يتكل على ما فيه من سعه الرحمة ، وعظَم الرجاء فضم إليه حديث الهرة الذى فيه من التخويف ضد ذلك ليجتمع الخوف والرجاء وهذا معنى قوله : (لئلا يتكل ولا ييأس) ، وهكذا معظم آيات القرآن العزيز يجتمع فيها الخوف والرجاء ،

وكذا قال العلماء يستحب للواعظ أن يجمع في موعظته بين الخوف والرجاء لئلا يقنُطَ أحد ولا يتكل قالوا : وليكن التخويف أكثر لأن النفوس إليه أحوج لميلها إلى الرجاء والراحة والاتكال ، وإهمال بعض الأعمال . انتهى كلام النووي ـ رحمه الله ـ[1] .

(١) من الأحاديث القدسية لشيخنا أبي عبد الله بن العدوي ـ حفظه الله صـ ٤٤ .

وسترُ العيوبِ

غفرانُ الذنوب لمن فعلَ معروفاً ولو بالحيوان

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قالَ النَّبىُّ ـ صلّى اللهُ عليه وسلمَ ـ « بَيْنَما كَلبٌ يَطيفُ بركيَة كَادَ يَقْتلُه العَطَشُ ، إذْ رَأَتْهُ بَغِىٌّ منْ بَغَايا بَنى إسْرَائيلَ ، فَنَزَعَت مُوقَهَا فَسقَتْهُ ، فَغَفَرَ لهَا به »[(1)] وفى رواية : أن الذى سقى الكلب رجل . عن أبى هَريرة رضى الله عنه : أن رسولَ الله ـ صلّى الله عَلَيه وسلمَ ـ قَالَ : « بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشى فَاشْتَّدَ عَلَيْه العطَشَ ، فَنَزل بئْراً فَشَربَ منْهَا ، ثُمَّ خَرَجَ فَإذَا هُوَ بكَلب يَلْهَثْ يأكُلُ الثَّرَىَ منَ العَطَشَ ، فَقَالَ : لَقَد بَلَغ هَذَا مثْلُ الذى بَلَغَ بى فَمَلأ خُفَّهُ ثمَّ أمْسَكهُ بفيه ، ثُمَّ رَقَى فَسَقَى الكَلبَ ، فَشَكَر اللَّه لَهُ فَغَفَر لهُ » . قَالوا : يَا رَسُولَ

---

(1) البخاري (حديث ٣٤٦٧) مسلم (٤ / ١٧٦١) .

اللَّه، وإنَّ لنَا فى البَهَائم أجْراً ؟ قَال : « فى كُل كَبد رَطْبَة أجْر »[1] تابعَه حماد بَن سلمة والربيع بنَ مسلم عَنَ محمدً ابن زياد .

قال الإمام النووى ـ رحمه الله ـ (شرح مسلم ١٤ / ٢٤٢) قوله : « فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَر لَهُ » معناه قَبلَ عَملَه وأثابه وغفر له . والله أعلم .

قال الحافظ ابن حجر فى الفتح (٥ / ٥٢) حصلت المغفرة بسبب سَقي الكلب أ هـ .

أما من ناحية أن الرواية الأولى أن الذى سقى الكلب امرأة بغى والرواية الثانية رجل « يحتمل تعدد القصة » قاله الحافظ ابن حجر فى الفتح (٦ / ٥٩٦) .

---

(١) البخاري (حديث ٢٣٦٣) مسلم (حديث ٢٢٤٤) .

المبحث الثانى

الخَـــوْفُ

الخـــوف

الخوف سَوْطُ الله يسوق به عباده إلى العلم والعمل ، لينالوا بهما القرب مَن الله تعالى ، وهو عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه فى الاستقبال ، والخوف هو الذى يكف الجوارح عن المعاصى ويقيدها بالطاعات ، والخوف القاصر يدعو إلى الغفلة والجراءة على الذنب ، والإفراط فى الخوف يدعو إلى القنوط واليأس ، والخوف من الله تعالى تارة يكون لمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وأنه لو أهلك العالمين لم يُبال ولم يمنعه مانع ، وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد بمقَارفة المعاصى ، وتارة يكون بهما جميعاً ، وبحسب معرفته بعيوب نفسه ومعرفته بجلال الله تعالى واستغنائه وأنه لا يُسئل عما يفعل وهم يُسئلون تكون قوة خوفه ، فأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وبربه ، ولذلك قال :ـ صلّى

اللهُ عليـه وسلمَ ـ : « وَاللَّه إنِّى لأعْلَمـهُمْ باللَّه وأشَـدّهُمْ لَهُ خَشَـية » وقال الله ـ عز وجَل ـ : ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ (فاطر : ٢٨) قال ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ : كفى بخشية الله علماً وكفى بالاغترار به جهلاً [(١)] .

وأحـياناً يتوهـم الصـالح أنه على درجـة من الصـلاح ويعصى الله ـ تبارك وتعالى ـ فى مسألة ويظن أنها مغفورة أو مغـمورة فى بحـر فضـائله ويظن أن الله لن يضـيِّق عليـه ويأخذه بالذنب الواحـد ، وهـذا ظن قـد يتسرب إلى بعض الصـالحـين ويدخـل لهم الشـيطان من هذا المدخل أنـهم لن يؤاخـذوا وإن أذنبـوا . فـأحـياناً يطمعـون طمـعـاً واسعـاً فى رحـمـة الله وجـدير بنا أن نطمع فـيـهـا لكن يحـملـهم هذا الطمع أحياناً على التهـاون بأمر الله والتهـاون بأمر رسـول

---

(١) من البحر الرائق فى الزهـد والرقائق لشـيخنا الحبيب أحمـد فريد ـ حفظه الله ـ .

الله ، ويظنون أنهم لم يُعذَّبوا ولم يعاقَبُوا ، فتأتيهم المؤاخذة وتأتيهم العقوبة الشديدة العاجلة اللاذعة . وهل اخرج آدم من الجنة إلا بذنب واحد؟! وهل طُرد إبليس ولُعن إلا بذنب واحد ؟! وكما حدث لأصحاب نبينا محمد ـ صلى اللهُ عليه وسلمَ ـ يوم أحد خرجوا وعصَوْا أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما قال لهم : « لاَ تَبْرَحُوا ، إن رَأيْتُمُونَا ظَهرنَا عَلَيْهم فَلاَ تَبْرَحُوا ، وَإنْ رَأيتُمُوهُم ظَهَرُوا عَلَينا ، فَلاَ تُعينُونَا) فخالفوا أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونزلوا للمشاركة فى جمع الغنائم فاستدار عليهم العدو وأعمل فيهم القتل كما هو واضح . وأصبحت الدائرة عليهم بعد أن كانت لهم . وهذا بشؤم ارتكاب نهيه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ: فليكن حال المؤمن كما قال الله فى شأن أهل الإيمان : ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ

يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ (المؤمنون : ٥٧ ـ ٦١)

وقال تعالى : ﴿ إِلاَّ الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ (المعارج : ٢٢ ، ٢٨) .

فاعلم أخي المسلم أن ميزان عدل الله تَبِينُ فيه الذرة ، وجزاؤه مرصد للمخطىء ولو بعد حين ، وربما ظن العبد أن الله قد عفى عنه وإنما هو إمهال من الله واستدراج وللذنوب عواقب سيئة ، فإياك والاغترار بحلم الله وكرمه فمن الناس من يفعل أشياء ويظن أنها صغيرة وأنها قريبة ولكن هذه الأمور الصغيرة قد تكون عند الله عظيمة قال

أنس - رضى الله عنه - : « إنكمْ لَتْعمَلون أعمالاً هى أدقُ فى أعينكم من الشعرة إن كنا لنعدها على عهد رسول الله - صلىَ الله عليه وسلمَ - من الموبقات » [1] قال أبو عبد الله : يعنى بذلك المهلكات . وفى رواية « كنا نعدها ونحن مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الكبائر » [2] أى تعملون أعمالا تحسبونها هينة وهى عظيمة وهؤلاء الصحابة - رضى الله عنه - خير من قَدَّروا الله حق قدره وعظموه حق تعظيمه ، فكانوا لا ينظرون إلى صغر المعصية ، لكن ينظرون إلى عظمة الرب سبحانه وتعالى فى قلوبهم .

فكلما زادت التقوى فى قلبك أخى المسلم عرفت قدر المعصية وكلما عظُمَ اللهُ فى قلبك عظمت معصيته

---

(١) البخارى (حديث ٦٤٩٢) .

(٢) هذه الرواية ذكرها الحافظ فى الفتح وعزاها للإسماعيلى .

عندك . واعلم أخي الحبيب أن الله يأخذ بالذنب الواحد ويعاقب به ولا يمنعك صلاحك من عقاب الله وعذابه وإلى مبحث الخوف والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وليحذر العبدُ من الإستهانةِ بالذنوبِ والمعاصى

فالله ـ تبارك وتعالى ـ كما وصف نفسه بأنه غفور رحيم ، وصف نفسه بأنه شديد العقاب فى غير موطن من كتابه .

قال سبحانه : ﴿**اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ (المائدة : ٩٨) .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿**غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِى الطَّوْلِ**﴾ (غافر : ٣) .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿**نَبِّئْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ**﴾ (الحجر : ٤٩ ، ٥٠) .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ **مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ (فصلت : ٤٣) .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ عَذَابِى أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ (الأعراف : ١٥٦) .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (المائدة : ٤٠) .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ (آل عمران : ٤)

وقال سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ (البروج : ١٢) .

فكما أنه سبحانه وتعالى يتجاوز عن السيئات ويعفو عنها ، فهو سبحانه يأخذ بالذنب ويعاقب به إن شاء .

وقد يظن الشخص أن الذنب صغير وهو عند الله كبير كخوض الخائضين بألسنتهم فى أعراض المؤمنين والمؤمنات : قال الله تعالى : فى شأن أهل الإفك الذين

خاضوا بألسنتهم في عرض أمِّنا الفاضلة عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ : ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ (النور : ١٥) .

وقال النَّبيُّ ـ صلَّى اللهُ عليه وسلمَ ـ في شأن صاحبَي القبريْن ـ : « إِنَّهُما لَيُعذبَان ؛ وَمَا يُعَذَّبَان في كَبِير ، ثُمَّ قَالَ : بَلَى » [(١)] ما يعذبان في كبير في أنظاركم، ولكنه كبير عند الله سبحانه وتعالى .

وقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعائشة لما قالت شيئاً في صفيَّة أم المؤمنين ، وأنها قصيرة ـ : « لَقَدْ قُلْتِ

(١) أخرجه البخاري (حديث ١٣٧٨ وفي عده مواطن) ، ومسلم (حديث ٢٩٢) واللفظ للبخاري من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعاً وفيه مرّ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على قبرين فقال : « إِنَّهُما لَيُعذَّبَان ؛ وَمَا يُعَذَّبَان في كَبِير ، ثُمَّ قَالَ : بَلَى أَمَّا أحَدُهُمَا فَكَانَ يَسْعَى بالنَّمِيمَة ، وأَمَّا أحَدُهُمَا فكَانَ لاَ يَسْتَتِرُ مِنْ بَولِه . . . » .

كَلمَةَ لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ البَحْرِ لمَزَجَتْهُ » [1] .

وعلى كل فصغير الذنوب وكبيرها مستطر .

قال تعالى : ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ (القمر : ٥٣) .

وقال سبحانه : ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ (المجادلة : ٦)

وقال : ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ﴾ (الكهف : ٤٩) .

وقال : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (الزلزلة : ٧ ، ٨) .

---

(١) أخرجه الترمذي (حديث ٢٥٠٢) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ وإسناده صحيح .

الله يؤاخذ بالذنب الواحد

وهذا نبى من أنبياء الله ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ قال الله عز وجل فى شأنه : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأنبياء : ٨٧ ، ٨٨) .

وقال تعالى : ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾ (الصافات : ١٣٩ ، ١٤٦) .

وقال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) لَوْلا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (القلم : ٤٨ ، ٥٠)

قال الله جل ذكره : أي واذكر ذا النون . والنون : الحوت « وذا » بمعنى صاحب فقوله « ذَا النُّون » : معناه صاحب الحوت كما صرح الله بذلك في « القلم » في قوله : ﴿وَلا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ ﴾ الآية وإنما أضافه إلى الحوت لأنه التقمة كما قال الله تعالى : ﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾

«فهذا النبي هو يونس بن متى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعثه الله إلى أهل قرية نينوى . وهى قرية من أرض الموصل قدعاهم إلى الله تعالى فأَبَوْا عليه وتمادوا على كفرهم . فخرج من بين أظهرهم مغاضباً لأجل ربه ، ووعدهم بالعذاب وكان خروجه من بين أظهرهم قبل أن يأذن الله له في الخروج وظن أن الله لن يضيِّق عليه ويأخذه بذلك أو

فظن أن لن نقضى عليه بالعقوبة . قاله القرطبى فى تفسيره (١١ / ٣٤٨) نقلا عن عدد من المفسرين .

قال تعالى : « فَظَنَّ أَنَ لَن نَّقَدرَ عَلَيه » لأهل العلم فى تأويلها قولان : فالذى عليه جمهورَ العلماء [١] : أن معناها فظن أن لن نضيق عليه و« نقدر »هنا بمعنى «نضيِّق » وهذا المعنى له شواهده فى الكتاب العزيز مثل قوله تعالى « اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنَ يَشَاءُ وَيَقْدرُ » أى ويضيق الرزق على من يشاء . وقولَه تعالى : « لِيُنْفِق ذُو سَعَةَ من سَعَتِه وَمَنْ قُدرَ عَلَيْه رِزْقُهُ فَلْيُنفق مَمَّا آتَاهُ اللَّهُ » الآية فقوله : « وَمَنْ قُدرَ عَلَيْه رِزْقُهُ » : أى ومن ضيق عليه رزقه . وقوله تعالَى : ﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ﴾ (الفجر ١٥ ، ١٦) .

(١) فتح البيان (٨ / ٣٦٥) صديق حسن خان .

ثم بَيَّنَ الله تبارك وتعالى فى موضع آخر : ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (الصافات ١٣٩ : ١٤٤) .

لمّا ترك يونس ـ صلى الله عليه وسلم ـ قومَه واتجه إلى البحر ، فوجد سفينة فركب فى السفينة ، وهو نبى كريم عليه سيما الفضل والصلاح ، فركب السفينة لأمر يريده الله تبارك وتعالى ، فما هو إلا أن لعبت الأمواج بالسفينة والذى يسخر الأمواج هو الله والذى يسخر البحر هو الله والذى يحرك السفينة هو الله . فركب يونس فى السفينة ولعبت الأمواج بالسفينة ، كُلُّها أمور لا يعلمها إلا الله ، فكل شيء يجرى فى هذا الكون بقدر الله ، والله يعلم ونحن لا نعلم ، أوشكت السفينة على الغرق وخاف أهل السفينة أن يغرقوا ، فاصطلح أهل السفينة على إلقاء بعض

ما فيها من الأحمال حتى تخف السفينة فأجْروا قرعة فيما بينهم فوقعت القرعة على يونس ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال الله : « فَسَاهَمَ فكَانَ منَ المدْحَضينَ » فتعجب الناس كيف يأتى السهم علىَ هذا الرجَل، ولكن الله يعلم والناس لا يعلمون فأعادوا القرعة فيأتى السهم ثانية وثالثة على يونس ـ صلى الله عليه وسلم ـ فَعَلَمَ يونس ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه أمرٌ أراده الله ـ سبحانَه وتعالى ـ فقام يونس ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأسلم نفسه وألقى نفسه عليه الصلاة والسلام فى البحر وقَدَّرَ اللهُ ـ سبحانه ـ أن يكون هناك حوت عظيم يأتى مسرعاً فاغراً فاهُ يلتقم يونس ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

فعند ذلك تذكر يونس ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما فعله فكانت هذه عقوبة من الله على خروجه من بين قومه قبل أن يأذن له ربُّه بالخروج : « فَنَادَى فى الظُّلُمَات أنّ لاَ إلهَ إلاَّ أنْتَ سُبْحَانَكَ إنِّى كُنْتَ منَ الظَّالمينَ » .

والظلمات : هى ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت .

« لاَّ إلهَ إلاَّ أنْتَ » : يعنى تنزيهاً من أن يُعجزَك شىء « إنِّى كُنْتَ منَ الظَّالمينَ » الذين يظلمون أنفسهمَ وأول هذا الدعاء تهليلَ وأوسطَه تسبيح وآخره إقرار بالذنب أ هـ .

و « المقصود هنا » أن ما تضمنته « قصة ذى النون ، مما يلام عليه كله مغفور بدَّله الله به حسنات ، ورفع درجاته ، وكان بعد خروجه من بطن الحوت وتوبته أعظم درجة منه قبل أن يقع ما وقع ، قال تعالى : ﴿ **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) لَوْلا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ** ﴾ وهذا بخلاف حال التقام الحوت فإنه قال : « فَالْتَقَمَهُ الحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ » فأخبر أنه فى تلك الحال مُليم و « المُليم » الذى فعل ما يلام عليه ، فالملام فى تلك لا فى حال نَبذه بالعراء وهو سقيم ، فكانت حاله بعد قوله : « لاَّ

إلهَ إلاَّ أنْتَ سُبْحَانَكَ إنِّى كُنْت منَ الظَّالمينَ » أرفع من حاله قبل أن يكون ما كان ، والاعتبار بكمال النهاية لا بما جرى فى البداية ، والأعمال بخواتيمها [1] أ هـ أفاده شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ .

فانظر أخى الحبيب : هذا نبى كريم من أنبياء الله وأصفيائه فعل شيئاً وظن أن الله لن يؤاخذه ولن يضيّق عليه به ، وهو خروجه من بين ظهرانى قومه قبل أن يأذن له ربه بالخروج ، فجاءت الرياح من حيث لا تشتهى السفن فكانت النتيجة أن أخذه الله بهذا الذنب وضيّق عليه به فالتقمه الحوت بعد أن وقعت عليه القرعة وعلم يونس ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن ما حدث إنما هو بسبب

---

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ (١٠ / ٢٩٩) وانظر تفسير ابن كثير (٣/ ١٩٧) (٤ / ٢٠ ـ ٤٠٨) فتح البيان (٨ / ٣٦٤ ـ ٣٦٥) أضواء البيان (٤ / ٦٨٢ ـ ٦٨٦) (٨ / ٤٣٣ ـ ٤٣٤) القرطبى (١١ / ٣٤٨) البحر المحيط لابى حيان (٧/ ٤٦١) .

خروجه من بين قومه قبل أن يأذن له ربه بالخروج فعند ذلك : نادى فى الظُّلُمَات أن لاَّ إلهَ إلاَّ أنْتَ سُبْحَانَكَ إنِّى كُنْت منَ الظَّالمين فاستجاب الله له ونجَّاه مما كان فيه . ثم قال الله فى شأنه : ﴿ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ منَ الصَّالحين ﴾ وهذا من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين . فاحذر ! أخى المسلم ولا تغتر بصلاحك وتتهاون فى فعل الذنوب والمعاصى فمهما بلغت درجة صلاحك فلن تكون فى منزلة هذا النبى الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومع ذلك أخذه الله وضيّق عليه بسبب خروجه من بين قومه عن غير إذن من ربه .

احذروا من سوءِ عاقبةِ المعصيةِ

عن البراء ـ رضي الله عنه ـ قال : (لَقِينَا المُشْرِكينَ يَوْمَئذ ، وأجْلَسَ النَّبيُّ ـ صلّى اللهُ عليه وسلمَ ـ جَيْشاً منَ الرّمَاة ، وأمّرَ عَلَيْهِمْ عَبْدَ اللَّه قَال : « لا تَبْرَحُوا ، إنْ رَأيْتُمونَا ظَهرنَا عَلَيْهِمَ ، فَلاَ تَبْرَحُوا ، وَإنْ رَأيْتُمُوهُم ظَهرُوا عَلَيْنَا فَلاَ تُعِينُونَا » فَلمَّا لَقِينَا هَرَبُوا ، حَتَّى رَأيْت النّسَاءَ يَشْتَدونَ فيَ الجَبَل ، رَفعنَ عَنْ سُوقهنَّ قَدْ بَدَتْ خَلاَخلُهُنَّ فأخَذُوا يَقُولُونَ : الغَنِيمَةَ الغَنِيمَةَ . فَقَالَ عَبْد اللَّه : عَهَدَ إليّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ «أنْ لاَ تَبْرَحُوا » فأبَوا ، فَلمَّا أبَوا صُرِفَ وُجُوهُهُم فأصيبَ سَبْعُونَ قَتِيلاً . . . » [1] .

وفى رواية للبخارى أيضاً قال البراء بن عازب ـ رضى الله عنهما ـ يُحَدِّثُ قَالَ : جَعَلَ النّبيّ ـ صلّى اللهُ عليه

---

(١) البخاري (حديث ٤٠٤٣) .

وسلمَ ـ على الرَّجَّالة يَومَ أحُد ـ وكَانُوا خَمْسينَ رَجُلاً ـ عَبدَ الله بنَ جُبَير فَقَالَ : « إنْ رَأيتُمُونَا تَخطَفُنا الطَّيْرُ فَلا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هَذا حَتَّى أرْسلَ إليْكُم وإنْ رَأيْتمُونَا هزَمْنا القَوْمَ وأوْطأنَاهُمْ فَلاَ تَبْرحُوا حَتَّى أرْسل إليْكُمْ » فَهزَمُوهُم قَالَ : فَأنا وَاللَّه رأيْتُ النّسَاء يَشْدُدْنَ ، قَدْ بَدَتْ خَلاخلُهُنَّ وأسْوُقُهنَّ ، رَافعَات ثَيابُهُنَّ . فَقَالَ أصْحَابُ ابْن جُبَير : الغَنيمَةَ أىْ قَوم الغنيمَةَ ، ظَهَرَ أصْحَابُكُم فَمَا تَنْتَظرُونَ ؟ فَقَالَ عَبْدُ الله بنُ جُبَيْر : أنَسيتُمْ مَا قَالَ لكُمْ رَسُولُ اللَّه ـ صلّى اللهُ عَلَيه وسَلمَ ـ ؟ قَالوُا : وَاللّه لنأتيَنَّ النَّاسَ فَلَنُصيبَنَّ منَ الغَنيمَة فَلمَّا أتَوْهُمَ صُرفَت وُجُوهُهُم ، فَأقْبَلُوا مُنْهَزمينَ ، فَذَاكَ إذْ يَدْعُوهُمَ الرَّسُولُ فى أخْرَاهُمْ ، فَلَمْ يَبْقَ مَعَ النَّبىِّ ـ صلى الله عليه وسلمَ ـ غَيرُ اثْنَى عَشَرَ رَجُلاً ، فأصَابُوا منَّا سَبْعينَ . . . . »[1] .

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ فصل فى ذكر بعضِ الحكم

(١) البخارى (حديث ٣٠٣٩) .

والغايات المحمودة التى كانت فى وقعة أحد : وقد أشار الله - سبحانه وتعالى - إلى أمهاتها وأصولها فى سورة (آل عمران) حيث افتتح القصة بقوله : ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ (آل عمران : ١٢١) إلى تمام ستين آية فمنها : تعريفُهم سوء عاقبة المعصية ، والفَشَل ، والتنازع ، وأن الذى أصابهم إنما هو بشؤم ذلك ، كما قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ (آل عمران : ١٥٢) فلما ذاقوا عاقبة معصيتهم للرسول ، وتنازعهم ، وفشلهم ، كانوا بعد أشد حذراً ويقظة ، وتحرزاً من أسباب الخذلان .[1] أ هـ .

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٢١٨) .

قـال الحـافظ ابن حـجـر فى « الفـتح » : وفى هذا الحـديث من الفـوائد . . شـؤم ارتكاب النهى وأنه يعم ضرره من لم يقع منه ، كما قال تعالى : « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً » . وأن من آثر دنياه أضرّ بأمر آخرته ولم تحصل له دنياه . و استُفيدَ من هذه الكائنة : أخذ الصحابة الحذر من العود إلى مثلها ، والمبالغة فى الطاعة »[1] أهـ .

(١) فتح البارى (٧ / ٤٠٨ ـ ٤٠٩) .

الصحابيُ الذى غلَّ شملة

عن سـالم مولى ابن مُطيع أنَّه سـمعَ أبا هريرة ـ رضى الله عنه ـ يقول : « افْتَتَحْنَا خَيْبَرَ ولَم نَغْنَم ذَهَباً ولاَ فضَّةً ، إنَّمَا غَنمْنَا البَقَرَ وَالإبلَ وَالمتَاعَ وَالحَوَائطَ ، ثُمَّ انْصَرَفنَا مَعَ رَسُول اللَّه ـ صلى اللهُ عليـه وَسلمَ ـ إلى وَادى القُـرَى ، وَمَعه عَبْدٌ لَهُ يُقَال مدْعَم أهْدَاهُ لَهُ أحَدُ بَنى الضبَّاب ، فَبَيَنمَا يَحُط رَحْلَ رَسُول اللَّه ـ صلى الله عليه وسلمَ ـ : إذْ جَاءَه سَهْمٌ عَائر حَتَّى أصَابَ ذَلكَ العَبْدَ ، فَقَالَ النَّاسُ : هَنيئا لَهُ الشَّهَادَةَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ـ صلى اللهُ عليه وسلمَ ـ : بَلَى والَذَّى نَفْسى بيدَه ، إنَّ الشَّمْلَةَ التى أصَابَهَا يَوْمَ خَيْبَر منَ المغَانمَ لم تُصبهَا المقَاسم لتَشْتَعل عَلَيه نَاراً فَجَاءَ رَجُلٌ ـ حينَ سَمعَ ذَلكَ منَ النَّبىِّ ـ صلّىَ اللهُ عليه وسلمَ ـ بشراك أوْ بشـراكَيْنِ ، فَقَالَ : هَذَا شَىءٌ كُنْتُ أصَبْتهُ ، فَقَالَ

رسولُ الله ـ صلَى اللهُ عليهِ وسلمَ ـ : شِراكٌ أو شِراكَانِ مِنْ نَارِ » (١) .

أخى الحبيب ـ انظر إلى هذا الصحابى الجليل قد حف بهالة من الفضائل نذكر منها شيئاً على سبيل الإجمال .

١ ـ له فضل الصحبة ومن خير القرون

فقد ورد فى كتاب الله ـ عز وجل ـ كمٌ كبير يحوى الفضل الغزير والثناء الجميل نورد من ذلك قال الله تعالى ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (التوبة : ١٠٠) .

وقال الله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ

(١) البخارى (حديث ٤٢٣٤) مسلم (حديث ١١٥) .

تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران ١١٠) .

وعن عبد الله ـ رضى الله عنه ـ أن النبىَّ ـ صلى اللهُ عليه وآله وسلمَ ـ قَالَ خَيْرُ النَّاسِ قَرنى ثُمَّ الذين يَلُونَهُم ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ . . . . . »(١) .

وعن أبى سعيد الخدرىِّ ـ رضى الله عنه ـ قال : قال النَّبىُّ ـ صلى اللهُ عليه وآله وسلمَ : « لا تَسُبُّوا أصْحَابى فَلَوْ أنَّ أحَدَكُمْ أنْفَقَ مِثْلَ أحُد ذَهَباً مَا بَلَغَ مُدَّ أحَدِهِمْ وَلاَ نَصِيفَهُ »(٢) .

٢ ـ نال شرف الجهاد فى سبيل الله :

عن أبى هريرة أنَّ رسولَ الله ـ صلى اللهُ عليه وسلمَ ـ سُئِلَ : أىُّ العَمَلِ أفْضَلُ ؟ فَقَالَ : إيمَانٌ بِاللَّه وَرَسُولِه .

---

(١) أخرجه البخارى (حديث ٣٦٥١) مسلم (حديث ٢٥٣٣) .
(٢) أخرجه البخارى (حديث ٣٦٧٣) .

قيلَ : ثمُ مَاذَا ؟ قَالَ : الجِهَادُ في سَبِيلِ اللَّه . قَيلَ : ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ : حَجٌّ مَبْرُورٌ[1] » .

٣ ـ نال شرف الشهادة فى سبيل الله :

قال الله تعالى : ﴿**وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ (آل عمران ١٦٩ ، ١٧٠) .

وعن المقدام بن معد يكرب قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « للشَّهيد عنْدَ اللَّه ستُ خصَال : يَغْفَرُ فى أوَّل دفْعَة ، وَيَرى مَقْعَدَهُ منَ الجُنَّة ، وَيُجَارُ منَ عَذَاب القَبر وَيأمَنُ من الفَزَع الأكبرَ ، ويُوضَعُ عَلَى رَأسه تَاجُ الوَقَارِ اليَاقُوتَةُ منْهَا خَيْرٌ منَ الدُّنْيَا وما فيهَا ، وَيُزَوَّجَ

(١) أخرجه البخارى (حديث ٢٦) مسلم (حديث ٨٣) .

اثْنَتَين وَسَبعينَ زَوْجَةً منَ الحُور العين وَيَشْفَعُ فى سَبْعينَ منْ أقَاربه »(1) انظر أخَى الحبيبَ فهذا غيض من فيَض وَقليل منَ كثير فى شأن هذا الصحابى إلا أنه لما غلَّ شملة أخذه الله بهذا الذنب وعاقبه به فصدق فيه قول الله ﴿ عَذَابِى أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ﴾ (الأعراف : ١٥٦) فمهما بلغت بك درجة الصلاح والتقوى ومهما أكثرت من فعل الخيرات فلا تتهاون فى شىء وتقول ما يكون هذا الشىء بجانب صلاتى وحجى وصومى وزكاتى وتَشْيعى للجنائز والاصلاح بين الناس . فالحذر! كل الحذر !أَخَى المسلم فهذا باب عظيم من أبواب الشيطان يستدرجك حتى يوقعك فى المعصية فانتبه قد تكون هى المعصية الوحيدة ويختم لك بها فتكون خاتمتك خاتمة سوء والعياذ بالله .

---

(١) أخرجه الترمذى (حديث ١٦٦٧) وقال حسن صحيح غريب وابن ماجة (حديث ٥٧٩٩) .

التى دخلت النار فى هرة حبستها

عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - أنَّ رسولَ الله - صلّى اللهُ عليه وسلمَ - قال : « عُذِّبت امْرأة فى هرّة ربَطَتها حتّى مَاتَتْ فدَخلَتْ فيهَا النّارَ ، لا هىَ أطْعَمتهَا ولاَ سَقَتْهَا إذْ حَبَستهَا ولا هىَ ترَكَتْهَا تأكُلُ من خَشَاشِ الأرْضِ » (١) .

قال الإمام النووى - رحمه الله : والصواب ما قدمناه : أنها كانت مسلمة . وأنها دخلت النار بسببها ، كما هو ظاهر الحديث . وهذه المعصية ليست صغيرة . بل صارت بإصرارها كبيرة . وليس فى الحديث أنها تُخلَّد فى النار . (٢) أهـ

---

(١) البخارى (حديث ٣٤٨٢) ومسلم (حديث ٢٢٤٢) .
(٢) مسلم بشرح النووى (١٤ / ٢٤٠) .

أخى الحبيب ـ انظر إلى هذا الحديث لعلك تأخذ منه العبرة والعظة ، قال اللهُ تعالى : ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ .

فهذا الحديث فيه بيانُ عدل الله ـ سبحانه ـ وكيف أنه يأخذ بالذنب ويعاقب به فهذهَ امرأة أراد الله أن يعاقبها على تعذيبها للهرة وإلا فليس بلازم أن تعاقب فالله يقول ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ** ﴾ فأحياناً تأتى أحاديث تُبينُ سعة رحمة الله وأحاديثُ تبين شدةَ مؤاخذة الله ـ عز وجل ـ على الذنب الواحد فواحد يجعل هذا أصلاً وواحد يجعل هذا أصلاً ، والصواب أن هذه الأحاديث سبقت كنماذج ، نموذج لعفو الله ، ونموذج لمؤاخذةالله ـ سبحانه وتعالى ـ ومن يرد الله به خيراً يفقه فى الدين .

خاتمـــة

هذا ما يسرَّ الله جمعه فى هذه الرسالة فجاءت قليلة المبنى كثيرة المعنى لمن فقهها وتدبرها وعمل بما فيها . أسأل الله أن ينفع بها إخوانى المسلمين وأخواتى المسلمات فما كان فى هذه الرسالة من صواب فمن الله وحده فهو حسبنا ونعم الوكيل وله الحمد الحسن والثناء الجميل ، وما كان من خطأ أو زلل أو نسيان فمن نفسى ومن الشيطان والله ورسوله منه براء ، وأعوذ بالله أن أذكِّركُمْ به وأنساه ، سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك .

وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

كتبه

أبو عبد الرحمن مسعد بن كامل

الفهرس


العصر للطباعة
هاتف : ٢٩٨٤٣٧٥
فاكس : ٢٤٣٣٢٤٩
محمول : ١٩٠٠٠٣٨ ٠١٠